في الألم زكاة

في رواية «صورة عتيقة» لإيزابيل الليندي تسجيل جميل لإحدى اعتقادات الصينيين، وهي أن الإنسان الذي يعيش طول حياته في سعادة ورغد من العيش لا يمكن أن تزكو نفسه، ذلك لأن النفس عندهم تزكو بالألم والمعاناة، تقول الليندي عن تاو تشين: «فهو يعتقد أن الروح تقترب من السماء، من خلال الرحمة والألم، متغلبة على المصاعب بالنبل والكرم، ولكن كيف يمكن لابنه (لاكي) أن يسمو إذا كان طريقه سهلاً على الدوام؟»[٢٦].

إن الاستقرار يفسد الأفرد كما يفسد الشعوب، كما أن حياة الرفاهية تنزل بسقف طموح الإنسان ليكون مجرد مآرب مادية يلتقي فيها مع البهائم، والملاحظ لواقع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صباه يدرك أن الويلات التي مرت بذلك الصبي ليست سوى اللهب الذي يجلو معدنه النفيس إعداداً له لمهمة كبرى. فمن موت والده إلى إعراض المرضعات عنه لفقره، إلى موت أمه وهو في السادسة من عمره إلى موت جده وهو ابن ثماني سنوات وشهرين وعشرة أيام. ولقد كان لتقلبه من بيت إلى آخر، ومن كافل إلى كافل، أثر شديد على نفسه، وللإنسان أن يتخيل الصبي الفقير الطيب، وهو يقف مشدوهاً وقد رزئ بأمه، لا يعلم أين ستسوقه الأقدار، وإلى أي سقف سيأوي. وفي ظل جده لم تطل راحته، فبعد عامين من فجيعته بأمه، مات جده، وقلّب

٢٦ ـ ص ٦٧ من صور عتيقة ـ ترجمة صالح علماني ـ دار المدى ـ دمشق ٢٠٠١م

الطفل بصره بين الحاضرين بحثاً عمن سيكفله... وكان أبو طالب.

إن الذين لا يفهمون المغزى من الألم والامتحان سيجدون أنفسهم يضجرون مما يصيبهم في طريق الحق من الموجعات.. غير أن كل ذلك يجري بإرادة الله تعالى التي تسوق الأمور إلى مآلاتها سوقاً حكيماً: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى.. فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث﴾ (الكوثر).

إن الاحساس بالآخرين لا يمكن أن يكون حقيقياً إلا بالتجربة الواقعية، والذين عاشوا في المخمل لا يمكن أن يفهموا ما معنى أن تزرقّ جنوب الفقراء الذين يفترشون الأرض لا سواها في الشتاء.. كما أن ملكة بريطانيا لم تكن تعلم ما الفقر والجوع حين أطلت على المتظاهرين من خلال نافذة قصرها وهي تسأل أحد مقربيها عن سبب المظاهرة، فيقول لها:

«إنهم لا يجدون الخبز يا مولاتي» فتقول مجيبة: «ولماذا لا يأكلون البسكويت؟» إن الله تعالى أذاق نبيه من اليتم ليقول له بعد عقود من ذلك: «فأما اليتيم فلا تقهر» وأذاقه الفقر ليقول له: ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾.

إن الإسلام دين الرحمة، لذلك فهو يجد في المجتمعات المتعبة أحسن مجال لانتشاره وازدهار دعوته، غير أن مشكلة الجماعات الإسلامية في كثير من المجتمعات أنها انصرفت جملة وتفصيلاً إلى المناوشات السياسية والمسلحة وتركت وراءها آلام الناس من الذين يمثلون مجالاً رحباً لانتشار دعوة الحق.

إن أكثر ما يفعله الكثير من الإسلاميين في الدول الفقيرة هو بيان أرقام العجز والتضخم الاقتصادي ومن ثَمّ تأليب الناس على الحكام والحكومات التي استحوذت على الثروة دونهم.

غير أن الدعوة الرحيمة لا تتجسد في ذلك لوحده... إنها لا تستطيع ولا يمكن أن تكون رحيمة وهي تنظر إلى الدمعات دون أن تمتد إليها فتكفكفها، كما لا يمكن أن تكون رحيمة وهي تستمع إلى الأنين فلا تملك أمامه إلا أن توجه اللوم إلى الحاكم.

إن من النعم الإلهية على الدعاة المسلمين أنهم موجودون في مناطق يكثر فيها الألم، كل ذلك تربية لهم على الشفقة والرحمة.

إن وجود العالم الإسلامي في المنطقة الفقيرة والمغلوبة والمتخلفة من الكرة الأرضية كفيل بأن يحقق ما تحقق للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خلال سلسلة آلامه في صباه، إذ لا يمكن للذين عاشوا في ظهراني الفقراء والمعوزين أن يتحولوا في يوم من الأيام إلى آلة تزيد من آلامهم، وتسحقهم حتى النهاية.. ولاشك أن النبي صلى الله عليه وسلم ـ سيتذكر وهويرى يتيماً مستضعفاً، حافياً في الطريق، سيتذكر يتمه هو، سيتذكر صباه، ويعطف من ثمة على هذا اليتيم الذي هو هو. والمسلم الذي عاش الفقر في ماضي عمره، حين يرى فقيرا بعد ذلكً فإنه يرى فيه نفسه، ويرحمه كما كان يتمنى هو أن يرحمه الناس.

إن الألم يوحّد، وهو رحِمٌ بين أهله.. والذي لم يعرف الإحساس بالألم يوماً، لا يمكن أن يرحم المتألمين.